الباب الثاني

في مكة

لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.

"**الشافعي**"

الفصل الأول

في مكة

ولد محمد بن إدريس الشافعي في سنة ١٥٠ للهجرة سنة وفاة أبي حنيفة. لم تشأ السماء أن تحرم الإمام ذلك الإمام حتى تهبه هذا الإمام..

ولد في غزة ثغر فلسطين مصر ومشارف الشام، وكان أبوه قد خرج إليها في حاجة أو بين جند الثغور. ومات بعد مولده بقليل. وقديما في رحلة صيف إليها، مات هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام. وأخو المطلب جد محمد بن إدريس، ودفن بها، فسميت "غزة هاشم".

وهاشم هو الذي سن رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام. ووثقت قريش علاقتها بالقبائل الضاربة في الطريق، وحالفت الدول التي تصل إليها التجارات من الشمال والجنوب. فصارت لها بهذا مكانة دولية.

كان يؤثر التجارة مع الشام ويؤمن طريقه إليها بتأليف القلوب بأمتعة أو إبل يهبها لأهل البادية. أما إخوة هاشم. فألفوا القلوب والتجارات إلى أركان أخرى من العالم. عبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس. ولقد أشار القرآن إلى هذه التجارات بقوله الوجيز المبين ﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)**﴾.

حملت محمد بن إدريس أمه إلى "عسقلان" على مبعدة ثلاث مراحل من غزة حيث يرابط المسلمون لحراسة الثغر، وكانت تعمرها، وغزة قبائل من اليمن. ومع أن أم الشافعي من الأزد، وهي قبيلة يمنية، فقد آثرت أن تهجر أهلها، فتحمل طفلها إلى مكة، مخافة أن يضيع نسبه وحقه

في بيت مال المسلمين من سهم ذوي القربى. فجهزته إليها، ابن عامين، فكانت أولى الرحلات في حياة كلها رحلات.

وستظل تكلؤه برعايتها ويتلمس عونها وهو ملء السمع والبصر. وسيبقى حديثها في التاريخ تحية لها، ولكل أم على شاكلتها، بما لها من يد عليه في تنشئته، والرحلة به والدفاع عنه، وتعليمه وحياطته في معظم حياته.. كل حياتها..

وستهبه بعض خصائصه، من عقلية المكافح إلى طريقة المبادرة إلى الغاية، والسعي دون القعود في الانتظار.

ويظهر أنها كانت على قدر من العلم. شهدت عند قاضي مكة، هي وأخرى – قيل إنها أم بشر المريسي – من أعيان المعتزلة، وتنسب إليه فرقة من المرجئة، وكان يحسد الشافعي. ولما أراد القاضي أن يفرق بين الشاهدتين قالت أم الشافعي: ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى** ﴾ فرجع القاضي لها في ذلك [1].

ورحل النبي قبل الإسلام رحلة جده هاشم مرتين، الأولى في حداثته بتجارات قريش مع عمه أبي طالب، والأخرى قبل أن يتزوج، وكيلا في تجارة خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين فيما بعد. ورحلها أبوه عبد الله مرة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، فلما قفلوا راجعين مرض ومات بالمدينة ودفن هناك.. ورحلها إدريس، أبو الشافعي، رحلة ذهاب بلا عودة.

---

(١) قيل في بعض الروايات إن اسمها فاطمة من نسل علي. فقالوا: لا هاشمي ولدته هاشمية إلا علي والشافعي.

أما الشافعي فيصنعها في إياب دون ذهاب، أو هي تصنع به على يد أم مجاهدة تبحث له عن حقه وعن مكاه.

كان هذا الحق في بيت مال المسلمين جديرا بالذود عنه – فلم يكن لها ولا للغلام سواه.. مات أبوه فقيرا في مهاجره من مكة إلى المدينة ثم إلى غزة يلتمس مراغما وسعة. وكان من حق أمه في نأيها ووحدتها أن تخاف على الوليد الغريب ضيعة النسب أو ضيعة الحق.

وكان هذا الحق نهبة المنتهب.. فلقد عزم (السفاح) من نحو ربع قرن أن يخرج بني المطلب – جدود بني المطلب – جدود الشافعي – من خمس الغنائم، ويفرده لبني هاشم، وبنو العباس فيهم، في حين أن النبي أشركهم وإياهم.. فتصدى عثمان بن شافع جد الشافعي للدفاع عنهم، فرد عليهم.

وأعطى النبي بني هاشم وبني المطلب ولم يعط بني عبد شمس من سهم ذوي القربى من "خيبر". فسعى إليه جبير بن مطعم وعثمان بن عفان قالا: يا رسول الله إن هؤلاء إخوتك من بني المطلب. أعطيتهم وتركتنا. وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة. فقال: "إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام. إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد" ثم شبك رسول الله يديه إحداهما بالأخرى.

وجبير من بني نوفل، وعثمان من بني عبد شمس.

ونوفل وعبد شمس والمطلب، جد الشافعي، وهاشم جد النبي أولاد عبد مناف الأربعة، الثلاثة الأخيرون أخوة أشقاء، أمهم عاتكة بنت مرة؛ أما نوفل فأمه واقدة بنت أبي عدي.

ولما مات هاشم في غزة خلفه "المطلب" في مناصبه فولي السقاية والرفادة بمكة. وكان المطلب يصغر عبد شمس، وكان ذا شرف وفضل، وكانت قريش تسمية "الفيض" لسماحته.

خلف هاشم عبد المطلب – جد النبي – غلاما صغيرا في يثرب "المدينة"، فأعاده عمه المطلب منها ليرد عليه أموال أبيه ومناصبه، فغلبهما على ذلك "نوفل" حتى كبر الفتى فاستعدى أخواله – بيثرب" فنصروه واسترد مكانته..

فالشافعي يلتقي بالنبي في الجد التاسع للشافعي [٢] والجد الثالث للنبي. وتزوج جده هاشم بن المطلب بن عبد مناف "الشفا" بنت عمه هاشم بن عبد مناف، فولدت له عبد يزيد، فكان العرب يسمونه "المحض لا قذى فيه".

وهكذا كان الهاشمان جدين للشافعي. وكان الشافعي ابن عم النبي وابن عمته.

كان مرتب الغلام من بيت مال المسلمين لا يكفيه، فعاش عيشة ضنكا، ومع ذلك أدخل الكتاب. وتبدت نجابته في سرعة حفظه وإن لم يجد أجرة المعلم، فكان يجلس مع الصبيان، كلما

---

(٢) الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ثن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

رأى صبيا تعلم شيئا تلقفه، ولم يمض يسير وقت حتى أدرك المعلم أن مطالبته بالأجر أقل فائدة له من حلوله محله في تعليم الصبيان كلما غاب عنهم.

واستمرت هذه الحال حتى تعلم القرآن كله وهو ابن سبع سنين. وجود القرآن على مقرئ مكة الكبير إسماعي بن قسطنطين.

ومع مضي الأيام تفتح قلبه وعقله على نسبه العظيم: إنه ابن عم النبي نفسه.. الذي نزل عليه الكتاب الذي يقرؤه ويقرئه.. وإن جده السائب كان صاحب راية الهاشميين في أولى وقائع الإسلام وقعة بدر – فلما أسر السائب جئ به إلى النبي مع عمه العباس فقال النبي للسائب عن العباس: هذا أخي وأنا أخوه – وفدى السائب نفسه، ثم أسلم بعد دفع الفدية، وصار له مقام محمود بين المسلمين. اشتكى يوما فقال عمر: اذهبوا بنا نعد السائب بن عبيد فإنه من مصاصة قريش.

ولقي شافع بن السائب النبي أيضا وهو مترعرع، وإلى شافع ينسب محمد بن إدريس. فيقال: الشافعي.

فهذان جدان له صحابيان.

بل إن أم السائب كانت أيضا من قريش [٣].

---

(٣) فهي الشفا بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف. وأمها خليدة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وأم علي بن أبي طالب هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. ومن هنا قول الشافعي فيما بعد: علي ابن عمي وابن خالتي.

ويظهر على صفحات التاريخ من أهل الشافعي بعد السائب، عبد الله بن السائب، وكان واليا لمكة. كما يظهر جد الشافعي عثمان بن شافع أبو العباس أبي إدريس – مدافعا عن حقوقهم – ومحمد بن علي بن شافع، نلقاه يجلس في بعض مجالس أبي جعفر المنصور، وإبراهيم بن عبد الله بن شافع ابن عم الشافعي الذي سيتحلق حوله فيما بعد بمكة.

وأصبح لمحمد بن إدريس وهو في الثالثة عشرة شأن في المسجد الحرام إذ يقرأ القرآن فينشج الناس يبكون.. قالوا: (كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا إلى هذا الفتي المطلبي الذي يقرأ القرآن فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء. فإذا رأى ذلك أمسك). إلى هذا الحد كان يفهم القرآن فتبلغ الموعظة هذا المبلغ!..

وعلمه القرآن من أمر نفسه ما لم يكن يعلم. من سيطرته على أفهام سامعيه بمعاني القرآن، إلى إدراكه للمكانة التي تبوأها به في قومه بعد سنوات ست يقرأ القرآن ويتعلم، وسيمضي سنة أخرى أو أقل ليجمع كل ما بمكة من علم، فيتناهى إليه عن مكانة قارئ القرآن ما رواه عمرو بن سلمة (لما كانت وقعت الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبادر أبي قومه بإسلامه. فلما قدم قال: جئتكم من عند النبي صلى الله عليه وسلم حقا. فقال: "صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا. فإذا حضرت الصلاة فليؤمكم أكثركم قرآنا" فلم يكن أحد أكثر قرآنا مني، لما كنت أتلقن من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين).

وكان إذن النبي في مرضه لأبي بكر أن يصلي بالناس إرشادا لمبايعته بالخلافة.

على أن اعتزاز الصبي بما رفعه إليه القرآن من مكانة قد صاحبه تقدير نفسه حق قدرها، بالانكباب على حلق العلم والاستمرار فيها، فازدادوا علوا بكل سبب. وستبقى قراءة الصبي للقرآن وفهمه درجة عنده، فيصبح من مسلمات فقهه إمامة الصبي، للمصلين إذا كان أقرأهم.

وسيتعهد الفتى بالتعمق الدءوب خصيصة الفهم الملهم للقرآن مذ راهق الحلم، ليصبح من أهل القرآن وخاصته، ولا يكفيه أن يكون من أهل الرسول برباط الدم، بل يسعى إلى أن يصير من أهله بحقه من العلم، فيتفانى في دراسة سنته على أعلم المسلمين بالسنن، ليصبح الفهم الملهم للسنة، خصيصته الأخرى.

هكذا وضحت طريق الشافعي منذ حداثته، ورقى رقيه من مواقع لم يتح مثلها لغيره، سما إليها بعمله وبيد الله فوق يده.

واستقر بالمسجد الحرام لا يكاد يبرحه. يجالس العلماء، ويحفظ الحديث ويغلغل الفكر ويدق النظر. فإذا رجع إلى داره بشعب الخيف انشغل بما رأى وما سمع يدونه ويحفظه.. وكانت إضافته تحول دون التدوين.. فبدا له أن من حقه على إدارات الدولة أن تمكنه من العلم، فقصد إلى أهل الديوان يستوهبهم الظهور ليكتب فيها ما يتعلمه. ولم يزل يذكر ذلك في أخريات حياته على أنه آية الإخلاص للعلم فيقول: "ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة ولقد كنت أطلب ثمن القراطيس فتعسر علي" وقال: لما خرجت من الكتاب كنت أتلفظ الحرف والدفوف "الجلود" وكرب النخل "أصول السعف" وأكتاف الجمال "العظم العريض خلف المنكب" أكتب فيها الحديث. وأجئ إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور "الأوراق" أكتب فيها. حتى كانت لأمي حباب "جرار" فملأتها أكتافا وخزفا وكربا مملوءة حديثا. ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب".

***

أدرك الحدث الناشئ جلالة المكان ومهابة الدروس ومكانة الأساتذة الين يتحلق حولهم، وربط الماضي والحاضر، وقارن موقفه ومواقف الذين جلسوا في هذا المكان قبل.

كانت الفتيا بالمسجد الحرام لعبد الله بن عباس، ابن عم النبي ونائب أمير المؤمنين علي، والجد الأعلى لهرون الرشيد، والمفسر الثبت لآيات الكتاب.. صلى إلى جنب الرسول، وأم المؤمنين عائشة معهما، تصلي خلفهما، إذ هو ابن عشر سنين. كان يجلس للفتيا في المكان ذاته أو قريبا منه. أبيض طويلا مشربا صفرة، جسيما وسيما صبيح الوجه له وفرة، ويخضب بالحناء. إذا قعد أخذ مقعد رجلين. والمسلمون من شتى البقاع حوله – ينظم فيه حسان بن ثابت بعض روائعه. عامة علمه من عمر وعلي وأبي ابن كعب.. كان حجة في الشعر والأنساب وأيام العرب، مجتهدا في التعرف على ما عند الصحابة من حديث أو علم. قال: "إني كنت لآتي الرجل فأجده نائما لو شئت أن يوقظ لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي لي الريح حتى يستيقظ مني ما أستيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف". ويركب زيد بن ثابت فيأخذ بركابه فيقول: "لا تفعل يا ابن عم رسول الله"! فيقول "هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا".

قيل لطاوس بن كيسان شيخ اليمن: أدركت أصحاب محمد ثم انقطعت إلى ابن عباس؟ قال: أدركت سبعين صحابيا من أصحاب محمد إذا تدارءوا في شيء انتهوا إلى قول ابن عباس.

ومع انصراف ابن عباس عن السياسة يقول لمعاوية وهو خليفة: أما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل.

سئل عبد الله بن عمر في شيء فقال: "سل ابن عباس فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد".

ارتبط فكر الشافعي وطريقته بابن عباس بعض ارتباط ابن عباس بعلي. ولقد اختص علي بعلوم القرآن والفقه مذ دعا له النبي "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، وأمره أن يقضي بين الناس، وكانت قضاياه ترفع للنبي فيمضيها، وانتهت أيام ابن عباس سنة ٦٨ بالطائف.

فأعقبه مجاهد بن جبر حتى سنة ١٠٣ وكان قد عرض القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس يقفه في كل آية يسأله فيم نزلت. فكان أعلم من بقي بعده بالتفسير. ثم عطاء بن أبي رباح حتى سنة ١١٤ قالوا: "كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم خيل إلينا أنه يؤيد".

أما عكرمة مولى ابن عباس فمات بالمدينة سنة ١٠٧. روى عنه وعن عائشة وأبي هريرة.. قالوا كان يرى الخوارج المعتدلين – وسينسب الشيعة فيما بعد فقه الشافعي إلى أمير المؤمنين علي عن طريق عكرمة أي عن طريقة المدينة. إذ تلمذ الشافعي لمالك تلميذ "ربيعة الرأي". وربيعة تلميذ عكرمة مولى ابن عباس، تلميذ علي.

آل منهاج ابن عباس إلى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح، حتى مات سنة ١٥٠. فآل علمه إلى كثيرين في طليعتهم مسلم بن خالد بن فروة الزنجي.

وجذبت حلقة مسلم فتى قريش. لكنه كان يجني ضرب النحل من الأزاهير الفائحة أو المتفتحة في الحلق المجاورة، وبخاصة حلقة سفيان بن عيينة شيخ المحدثين (١٩٨) وستظهر آثار جلوسه إليه في كثرة ما يروي عنه، وحلقة سعد بن سالم القداح وفيه يقول الشافعي: "كان يفتي بمكة ويذهب إلى قول أهل العراق". وعندما يقول الشافعي: "أخبرنا سعيد عن ابن جريح" فهو يعينه؛ وحلقة داود بن عبد الرحمن العطار؛ وحلقة عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد. وسيروي عنهم جميعا، متفرقين ومجتمعين، عن ابن جريح أستاذ مكة.

واحتفى الأساتذة الكبار بتفكيره وقدروا مواهبه وخصاله. فكان سفيان ومسلم وشيوخ مكة عامة يصفونه في صغره بالذكاء والعقل والفتوة والصيانة ويقولون: "لم تعرف له صبوة".

وكيف يصبو من خشع قلبه، واجتباه ربه، فعلم القرآن في سبع سنين وأبكى به الناس في ثلاث عشرة.

أما هو فكان يقول عن سفيان: "ما رأيت أحدا جمع الله تعالى فيه من آلة الفتوى ما جمع في سفيان بن عيينة". "وما رأيت أحدا أحسن تفسيرا منه للحديث وما رأيت أحدا أكف منه عن الفتيا".

ومن شهادة سفيان عن بعض البوادر الأولى في حياة الشافعي تظهر على ارتباط الفقه باللغة، وبلوغ الشافعي مكانته من اللغة وأسرارها إذ هو ناشئ يطلب العلم.

كان سفيان يحدث بحديث (وأقروا الطير على مكناتها) فوجد الشافعي إلى جواره فسأله: يا أبا عبد الله ما معنى قول النبي "وأقروا الطير على مكناتها؟ قال الشافعي "إن علم العرب كان زجر الطير والحظ والاعتساف (التكهن). كان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمرا نظر أول طير يراه. فإن سنح عن يساره فاجتاز عن يمينه قال: هذا طير الأيامن. فمضى في حاته ورأى أن يستنجحها. وإن سنح عن يمينه فمر عن يساره قال: هذا طير الأشائم. فرجع، وقال هذه حالة مشئومة. فيشبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم. "وأقروا الطير على مكناتها" [٤] أي لا

---

(٤) تروى أحيانا وكناتها أو أوكارها. والمكنات ججمع مكنة (بيضة الضباب). وقيل: جمع مكن وهي جمع مكان.

أما الوكنات فجمع ركن. قال الأصمعي: الوكن مأوى الطير في غير عش. والوكر ما كان في عش. قالوا: الوكنات عش الطائر فوق الجبل أو الجدار. وهو فوق الأشجار عش، وعلى سطح الأرض أدحية.

تهيجوها، فإن تهييجها وما تعملون به من الطيرة لا يصنع شيئا وإنما يصنع فيما توجهون فيه قضاء الله عز وجل" واستشهد بشعر الحطيئة إذ قال يمدح أبا موسى الأشعري:

لا يزجر الطير سنحا إن عرضن له ولا يفيض على قسم بأزلام

فصار سفيان بعد ذلك يفسره على ما قاله الشافعي. وإذا جاءه شيء من التفسير والفتيا التفت إلى الشافعي وقال: "سلوا هذا".. وكان يقول: "هذا أفضل فتيان أهل زمانه".

بقي أفضل فتيان أهل زمانه سنوات أخرى يتلقى العلم. وأذن له مسلم أن يفتي وهو لم يبلغ العشرين. لكنه كان يوقن أنه إذا ترأس حلقة فلن يتاح له أن يتعلم. ولقد قيل له "تفقه قبل أن ترأس فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه".

وهو لا يستطيع أن يكون عالم قريش يملأ طباق الأرض علما – كما حدث النبي – إلا أن يقطع في العلم أشواطا أخرى، وعلى هذا أبى لوذعي مكة أن يجلس مجالس الأساتذة.

هذيل:

اتجه الشافعي إلى دراسة اللغة وآدابها اتجاه عقلي علمي وجهته السيرة النبوية، وبصر بأهمية اللغة كمصدر أول لفهم الكتاب والسنة، كمثل ما بصر بأهميتها عبد الله بن عباس عالم اللغة والأدب ومفسر القرآن وأستاذه علي بن أبي طالب، أبلغ العرب بعد النبي. فمن يجلس مجالس التلامذة الفكريين لابن عباس أو علي، مطالب بأن يدرس الفصاحة العربية ليحيط باللسان العربي الذي نزل به القرآن، اللسان الذي أمسى يتكلمه الناس عربا وأعاجم أو أبناء أعاجم، هجنت كلامهم العجمة.

وهو لا يأخذ الشيء إلا من مصادره. فقصد إلى قبيلة "هذيل" في البادية، ليدل مرة أخرى، في حداثته، على أن النهج العلمي فطرته التي فطره الله عليها.. وكأنما ولد وولدت غريزة الكشف عن الأعماق معه.

وسيبقى منهاجا دائما له: أن يؤخذ الشيء من أصوله. وستكون الأصول منطقة كشوفه التي بذ بها الأقران والضرباء.

كانت قريش أهل الكعبة، ومنهم سدنتها، وكانت أجود العرب انتقاء لأفصح الألفاظ وأسهلها عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس. لكنها كسائر أهل الحضر خالطت أبناء الأمم، فلم تسلم لغتها، على فصاحتها وسمو تعبيراتها، سلامة لغة أهل البادية الذين لم يتاجروا مع غيرهم ولم تغلب عليهم دماثة الحضر.

وكثير من ناشئة قريش كانوا يخطون الخطوات الأولى إلى بني سعد في البادية ليتعلموا اللغة الصحيحة الخالصة. واعتاد أشراف مكة الأولون أن يبعثوا أطفالهم إلى البادية، ليبقوا فيها حتى الثامنة أو العاشرة، وليعودوا أقوى صحة وأفصح لسانا.

ومن قبل ذلك بقرنين وأعوام عادت حليمة السعدية وزوجها إلى مساكن بني سعد بالطائف يحملان رضيعا، ابن أيام، ليرضع لبانها ويصلب عوده، وتسلم له اللغة. ثم يعود إلى أمه وجده يجري في سنته الخامسة وكأنه في العاشرة بين أترابه. أما عقله فكان لا أتراب له: الوعاء الطاهر لآخر الرسالات. صلى الله عليه وسلم.

كانت نفس الرحلة، من مكة إلى مكة عن طريق البادية، مع فارق السن، وجامعة الخصاصة واليتم ووشيجة القربى.. وكانت درسا تعلمه محمد بن إدريس.

وفي الصحراء تقشف ورياضة، وفصاحة وبلاغة.. وفيها رعى محمد الغنم في شبابه مرة بعد أخرى، كمثل ما رعى موسى وعيسى بن مريم، لتقدم السماء الدليل، من عمل الأنبياء، على أن العمل حياة.

يقول السيوطي: إن الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم، وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر القبائل "ورووا عن النبي أنه قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف" ومما قيل في معناه إن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل العرب.. واختلفوا في تعيين القبائل السبعة. لكن قريشا وهذيلا واردتان في كل الأقوال.

ويقول أبو عمرو بن العلاء معلم البصرة الأول: "أفصح العرب عليا هوازن، وسفلى تميم".

ومن هوازن سعد بن بكر "ومن تميم شعراء العرب العظماء: الفرزدق، وجرير وآخرون.

قال أبو بكر للنبي يوما: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله. فأجاب: "وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد".

عظم أمر مكة بالإسلام فغدت قبلة العالم وحاضرته. حري بالفيضان الدافق عليها من الحضارات واللغات واللهجات أن يحدث آثارا في لغة أهلها، فحسن الحضارة كلغتها، مجلوب بتطرية وتخليط، أما البداوة فحسنها برئ غير مجلوب.

في عهد النبي لحن رجل فقال النبي لناس: "أرشدوا أخاكم".

وكتب كاتب أبي موسى الأشعري إلى عمر "من أبو موسى". فكتب عمر إلى أبي موسى: "عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطا".

وعمر كان يضرب بنيه إذا لحنوا.

وفي النصف الثاني من القرن الأول كان الحجاج الخطيب لحانه.

وكان عبد الملك بن مروان الذي قال فيه عبد الله بن عمر: "إن لمروان ابنا فقيها فاسألوه"، يجد ابنه الوليد يلحن، فيقول في حسرة المعتذر: أضر بالوليد حبنا فلم نرسله إلى البادية.

وسنرى في القرن الثاني علماء اللغة وأئمتها كافة يرحلون إلى الصحراء، يتعلمون اللغة ويجمعونها، كالخليل بن أحمد صاحب المعجم الأول وواضع النحو، وواضع علم العروض، وأبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، والكسائي، وأبي زيد الأنصاري، والجاحظ وغيرهم. ولما انتشر القياس والاستعارة وغيرها أصبحت اللغة التي نستعملها أوسع وأعم من اللغة التي كان يستعملها العرب إذ نزل القرآن. ومن أجل ذلك كانت وصاة عبد الحميد بن يحيى للكتاب في أول القرنين الثاني: "واروا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها.."

على أننا لا نعرف هل بدأ الشافعي دراسة اللغة قبل أن يختلف إلى الفقهاء في المسجد أو بدأها بعد. ومن الروايات ما يفيد أنه لزم "هذيلا" سبعة عشر عاما، ومنها أنه برع في الرمي وفي الشعر وفي أيام العرب وجود القرآن على إسماعيل بن قسطنطين. ثم أقبل على الفقه بنصح من الآخرين.

ولا نستطيع أن نجزم بخروجه إلى هذيل في إبان الدرس، وإن كان مفهوما أنه أغرم بالخيل وبلغ الغاية في الرمي في إبان إقامته في الصحراء، وهما رياضتان للفتوة الباكرة في البادية وهذيل. والأصمعي يقول: "إذا فاتك الهذلي أن يكون راميا أو شاعرا فلا خير فيه". والجاحظ يروي عن يونس بن حبيب "ليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو".

لكن القدر المتيقن أنه تعلم الأدب وحفظ الشعر قبل أن يبرح مكة إلى المدينة بعد إتمامه الدرس على مسلم بن خالد، وأنه أذن له أن يفتي بمكة وهو في حدود العشرين أو قبل. وأن سفيان بن عيينة كان يسأله أيامئذ في المعاني. ويشير على الناس أن يسألوه.

وحسبنا أنه تبحر في اللغة وتعلم الفقه قبل أن يفصل من مكة إلى المدينة. فاكتملت له أداة فهم النصوص من اللغة وآدابها وأشعارها وسير العرب وأخبارها في الجاهلية والإسلام لأن دراسة القرآن دراسة نصوص وسير في المقام الأول. وفي ذلك قول محمد بن بنت الشافعي: أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة، وقال ما أردت منه إلا الاستعانة على الفقه.

أقام الشافعي في هذيل ردحا من الزمان، ليحفظ عشرة آلاف بيت من أشعارها بإعرابها ومعانيها، وليحمل شعر الشنفرى فينقل ذلك عنه العلماء. ويقول الأصمعي ذاته – وكان قد تخطى الأربعين – عن هذه الفترة من مطالع حياة الشافعي: "قرأت ديوان الهذليين عن شاب من شباب قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي".

وإذا كان الأصمعي يقرأ ديوان الهذليين بتمامه على الشافعي، والاصمعي عالم اللغة العربية وراويتها الأكبر، وفيه قول الشافعي: "ما عبر أحد عن اللغة بأحسن مما عبر عن الأصمعي"، وكان الشافعي يعرف إعراب هذه الآلاف من أبيات الشعر ويدرك معانيها وألفاظها وغريبها في فجر شبابه، فتلك مكانة تضعه – إذ هو شاب – بين كبار الأساتذة.

بلغ عبد الملك بن قريب "الأصمعي" مبلغه العظيم، فكانت له حلقة بجامع البصرة إلى جوار حلقات الخليل بن أحمد وأبي زيد الأنصاري وخلف الأحمر والنضر بن شميل ويونس بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى، لأنه أكثر التطواف بالبادية حتى ليفحط قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره، أحد عشر ألف أرجوزة منها البيت والبيتان والمائة والمئتان. ومن أهمها أشعار هذيل. وكان يعتبر الشعر الجاهلي مفتاح اللغة العربية، وتفسيرا وأخبارا ولغة، ويرى الجهل بأشعار الأولين مؤديا إلى اللحن في اللغة، وعدم فهمها، وبالتالي إلى غساءة فهم النصوص أو سوء نقلها. ويستوي في ذلك آي الكتاب وأحاديث الرسول لما هي عليه من بلاغة عالية اكتملت للعرب في عصرهم الذي نزلت فيه الرسالة.

وكان الأصمعي يجلس في شبابه إلى صديق أبيه سفيان بن عيينة المحدث، عندما يزور مكة ويقول له سفيان: (من الخير أن تكون شاعرا).. وربما لقي الشافعي في هذه المجال، أو إلى جانبها في حلقة مسلم.

كانت هذيل تنزل مواضع متفرقة بين مكة والمدينة والطائف وخاصة البقاع الجبلية، ومن بطونها بطون أحاطت بمكة، فلا جرم كان الهذليون والقرشيون قسماء في الفصاحة كما كانوا أقرباء، في الجوار والصهر والدماء. ولقد أفرد الأصمعي لشعرهم كتابا قدم فيه شعرهم على شعر امرئ القيس، ومن الذين صحح شعرهم على الشافعي عيينة أبو ذؤيب وأبو كبير، وأبو قلابة والمتنخل وغيرهم.

قال عنهم حسان بن ثابت شاعر الرسول: (إنهم أشعر القبائل العربية). وقال الأصمعي: (فيهم أربعون شاعرا مفلقا). كانوا قوما جبليين يعيشون على الغزو والحرب فأبلوا في حروب الإسلام أحسن البلاء، وبخاصة في فتوح الشام ومصر. ولم يعودوا إلى بلادهم بعد الفتح. قال

ابن خلدون عن قبائلهم (لم يعد لها في الحجاز حي يطرق) ولما دخلوا مصر استقروا بها، وكان منهم فيها شعراء فحول.

ولهذيل مشاركة كبرى في الفقه ونشر الإسلام. فمنها عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة، وأستاذ الكوفة، والأستاذ الروحي لأبي حنيفة، والجد الأعلى للقاسم بن معن أستاذ اللغة وتلميذ أبي حنيفة.

ولقد عد صاحب الأغ..... بنين عشرة لمرة كانوا جميعا شعراء دهاة.

وكثيرا ما استشهدت بأشعار هذيل معاجم اللغة. وعليها تعلم الشافعي، والأصمعي والسكري، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني وكثيرون آخرون.

وتعتبر مجموعة الهذليين أكبر مجموعة شعر من فصيح أدب العرب آلت إلينا من الجاهلية وصدر الإسلام (٥).

ظل الشعر الهذلي منذ تدوين اللغة العربية حقيبة نصوصها وجعبة شواهدها وملتقى حفاظها، يعتمد المفسرون عليه، فلم يكونوا يأخذون بما ينطق به عامة القبائل العرب، مثل لخم أو جذام، أو قضاعة أو غسان، أو تغلب، أو النمر؛ بل كانوا يأخذون عن قيس وأسد وتميم،

---

(٥) بلغت أشعار الهذليين من الأهمية بالنسبة للغة العربية وسير الجاهلية التي تضمنتها أن طبعت من مجموعاتها في أوربة ثلاث طبعات. واحدة من أكثر من مائة عام في لندن سنة ١٨٥٤، وثانية بألمانيا في برلين سنة ١٨٨٤، وثالثة بألمانيا بعضها في هانوفر عام ١٩٢٦، وبعضها في ليبزج سنة ١٩٣٣. كل هذا غير طبعات بلدان الأمة العربية.

وعن هذيل وعن بعض كنانة وبعض الطائيين. فهذيل كانت إحدى جهات ست لا يقتدي إلا بها ولا تؤخذ اللغة إلا عنها. قال أبو عمرو بن العلاء في شعرائها: "أفصح الشعراء ألسنا وأعربهم أهل السروات وهن ثلاث. وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن. فأولها هذيل وهي تلي الرمل من تهامة، ثم عليه السراة الوسطى، ثم سراة الأزد".

ولقد طالما استشهد أمراء البلاغة بشعر هذيل: يقول علي في خطابه الشهير لمعاوية: "زعمت أني لكل الخلفاء حسدت. وعلى كلهم بغيت: فليست الجناية عليك فيكون العذر إليك (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها)".

وعبد الله بن الزبير يقول له أهل الشام: يا ابن ذات النطاقين، فيرد بشعر أبي ذؤيب نفسه:

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وسيستشهد بهم الشافعي.

ومن يقرأ ديوان الهذليين بعضه أو كله يقرأ عجبا. العربية الفصحى كما كانت في الجاهلية، وقبل أن ينزل القرآن وحين نزوله، كثير منها لا يعرفه المرء اليوم ولا كان يعرفه الناس في القرن الثاني للهجرة!. ولا تحتويه المعاجم! ومنها آيات في رشاقة اللفظ ودقة التعبير ورقة التصوير، ومعان ذات صفاء ولمعان. كم تناقلها الشعراء بعد، بالتحوير والتغيير، والتجديد.

إليك أمثالا من روعة البلاغة ووحشة الغرابة في أشعارهم، قد تغني عن دراسة مفصلة لمصادر لغة الشافعي الجزلة الفصحى المعبرة.

ومن شعر أبي ذؤيب الهذلي وكان جاهليا إسلاميا من المخضرمين:

وتجلـدي للشـامتين أريهمـو أنـي لريـب الـدهر لا أتضعضـع
والـنفس راغبـة إذا رغبتهـا وإذا تـرد إلـى قليـل تقنـع

ومع هذه السهولة المألوفة يقول في القصيدة ذاتها

أكل الجميم وطاوعته سمحج مثـل القنـاة وأزعلتـه الأمـرع

(الجميم – الحشيش السمحج – الأتان الطويلة الظهر – أزعلته – أنشطته – الأمرع – الخصب).

ويقول:

جزيتك ضـعف الـود لمشـايكته ومـا إن جزاك الضـعف مـن أحد قبلـي

ويقول عبد ذلك:

لعمرك ما عيساء تتبع شادنا يعن لها بالجزع من نخب النجل

(قال الأصمعي – عيساء يعني ظبية بيضاء شبهها بالمرأة تتبع شادنا يعني ولدها ويعن لها يعرض لها. بالجزع من نخب. واد بالسراة. النجل النز وهو ماء يظهر الأرض ثم يجري).

وللبيت الذي استشهد به علي وابن الزبير من شعر أبي ذؤيب واحد من أبيات قصيدة فيها الكثير مثل قوله:

فما أم خشف بالعلاية شادن تنـوش البريـر حيـث نـال اهتصـارها

(الخشف الظبي أول مشيه. شدن وخذل: قوي وتحرك. تنوش البرير – تمر الأراك. نال اهتصارها. أي تجذبه. "العلاية" موضع. يريد تشبيه حبيبته في حسن تلفتها بظبية قد قوي ولدي وتبعها وهي تتناول الأراك وتجتذب غصونها بضمها. وإنما شبهها بظبية ذات خشف لأنها شديدة الخوف على خشفها فهي كثيرة التلفت إليه حذرا عليه).

وفي حين نجد له قصيدة سهلة فيها:

ما لي أحن إذا جمالك قربت وأصد عنك وأنت مني أقرب
وأرى البلاد إذا سكنت بغيرها جدبا وإن كانت تطل وتخصب

(تطل – يصيبها الطل).

نجد قصيدة أكثرها مثل مطلعها:

وقائله ما كان حذوة بعلها غدائتذ من شاء قرد وكاهل

(أراد: ورب قائله يقول؛ ما أصاب زوجي من حذوبة الجيش. أي ما أحذى. ما أعطى. وقرد وكاهل حيان) [٦].

---

(٦) إليك بعض أمثال من شعر ساعدة بن جؤيه الهذلي:

ومن العوادي أن تفتك ببغضة وتقاذف منها وأنك ترقب
شاب الغراب ولا فؤادك تارك ذكر الغضوب ولا عتابك يعتب
خرق غضيض الطرف أحور ذو حوة أنف المسارب أخطب

كانت إحاطة الشافعي الكاملة بهذا الأدب منحة من السماء. فإذا سلم أسلوبه مع ذلك من غرائب البادية وازدان بالجزالة، فإنه يكون قد اختار أحسن الأساليب. وبهذا قدر أن يرفع مستوى التعبير الفقهي إلى أعلى مستويات البلاغة.

وسيبقى في أسلوبه من أساليب الجاهليين التي كانت مستعملة عند نزول القرآن، فوق فصاحة الكلام وبلاغته ووجازته، وضوح الغرض كله مع تحديده، بدلالة العبارة بتمامها وبالكلمات كلمة كلمة، كأنها فصلت للمعنى لا تزيده ولا تزيد عنه، ولا تنقصه ولا تنقص دونه، مع الجزالة، والقصد المباشر. دون إشارة إلى معان مغيبة أو احتمالات متوقعة. بل العبارة جامعة مانعة. كل أولئك مع استعمال النحو الأصيل عند الجاهلية قبل أن يعرفه الخليل وسيبويه وتلاميذهما أو يضعا النحو على أساس القياس.

العوادي: الأشغال والصوارف. تقتك: أتقتك. البغضة: البغضاء. يعتب: يستقل بعتبى. الحرق: الصغير من الظباء. الشادن: المتحرك. ذو حوة: أي ذو خطوط تضرب إلى السواد. الأخطب: الأخضر اللون. أنف المسارب: يقول هو مستأنف الربيع ولم يرع قبله. والمسارب: مسارحة التي يسرب فيها.

أحقـــا أنكـــم لمـــا قتلـــتم نـــداماي الكـــرام هجرتمـــوني؟
فـإن لـدى التناضـب مـن عـوير أبـا عمـرو يخـر علـى الجبـين
وإن بعقـدة الأنصـاب مـنكم غلامـا خـر فـي علـق شـنين

(التناضب: جمع تنضبة – ذكر ياقوت التناضب بكسر الضاد وقال كذا وجدته بخط ابن أخي الشافعي. ثم قال وغير، يضمها. عقدة الأنصاب: موضع. والشنين: الذي يتشنن أي يتصبب. ويقال: شن على رأسه قربة من ماء).

الرجل:

تزوج محمد بن إدريس حميدة حفيدة عثمان بن عفان [٧] فولدت له ولدا سماه وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات. وشهود الجنائز والحج بعد الحج. وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل. وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أولادكم وأموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا أولادكم. أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟) فالتفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال "هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها"؟ فقالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي إليها فقال "افهمي أيتها المرأة. وأعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله".

ومن التبعل تنشئة البنين.

ولقد كانت أم محمد بن إدريس جديرة بفتاها: قدمته إلى مكة فطفق شيوخها يعملون في تأديبه نحو عشرين عاما، ثم قدمته مكة بدورها إلى المدينة ليتأدب على إمام دار الهجرة ذاته نحوا من عشر سنين، ثم أتاح لنفسه كل فرصة بجهاده في سبيل الدين فكانت مراكز القوى الحضارية في الأمة الإسلامية كلها هي المجال الحيوي الذي تشكلت فيه شخصيته وطريقته، فجزى أمته أعظم الجزاء بأصوله ومنهاجه وفقهه وعمله، وجزى أمه الشكر والذكر، كلما استعرض أيام حياته فنبه على مساعداته حتى وهو يدق أبواب الثلاثين.

---

(٧) بنت نافع بن عيينة بن عمرو بن عثمان بن عفان.

لم يكن ضموره وليد كفاحه فحسب، بل كانت محاربة البدانة مبدأ له قل أن نرى له مشابها لدى العلماء ممن يجلسون للناس. فهو يرى البدانة معوقة عن العمل للدين والدنيا بما هو أنبل وأمثل، مما يندر أن يقدر عليه البطين البادن.

قال: "ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن. وذلك لأن العاقل لابد أن يهتم لمعاده أو لمعاشه. وشدة الاهتمام مانعة من السمن".

وقال عن نفسه "ما شبعت من سبع عشرة سنة إلا شبعة طرحتها لساعتي".

وكأنما الشبع عنده منقصة نجاه الله منها. فيشير إلى أنعم الله عليه فيجمع الصدق والاعتدال في الطعام في واد واحد بقوله "ما كذبت وما حلفت بالله صادقا ولا كاذبا وما شبعت منذ عشرين سنة".

كان يصحب العصا لا تفارقه. قيل له: إنك تدمن إمساك العصى، قال: لأذكر أني مسافر.

وسيقضي حياته كلها كما بدأها، جواب مجاهل في بوادي الأمة العربية وحواضرها. وكأنما كان جوبها بعض هواياته أو رياضاته، فكره أن يضيف البدانة إلى أثقاله: قال في الضمور والبدانة وانشغال البال: كان في الزمن القديم ملك شديد السمن فذكر لبعض الأذكياء من الأطباء ذلك وطلب منه دواء يقلل السمن فقال: أصلح الله الأمير. أنا رجل طبيب ومنجم وقد نظرت في طالعك فلم أجد في عمرك إلا شهرا، ولا فائدة في هذا العلاج. فحبسه ليعرف أنه صدق أو كذب. واحتجب الملك عن الناس واستولى عليه الحزن والفكر فقل سمته. فلما انتهت المدة خرج الملك وأحضر الطبيب وقال ظهر كذبك وأنا أعذبك على هذا الكذب. قال الطبيب:

أصلح الله الأمير. أنا أهون على الله عز وجل من أن أعلم الغيب ولكن ما عرفت لتقليل السمن علاجا إلا الهم والحزن فلهذا السبب قلت. فأجازه الملك وأحسن إليه.

***

ولئن كان من الأقوال ما يكتب الخلود له، أو كانت أعمال الرجال أعلى صوتا من الأقوال، إن أعمال الشافعي وأقواله في الفقه صنوان، تتراءى يوما فيوما على صفحات حياته، وأنصعها شجاعة الفكر والنفس. ولقد ظلت إلى جوار ذلك تراثا من روائع الكلم، خليقا بأن نضرب الأمثال منه في هذا المقام، لما فيه من أفكار معبرة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن آرائه وخصائصه ذاته، ومن رواياته واستشهادات تكاد تلمسنا الوجه الخفي أو الجانب الخلفي من بديهته، يلهمه خواطره ويخلق نظرياته، وإن لم تقع عليه الأعين:

الكرم والتقوى عنده أمران أساسيان للإنسان، إذا تجرد منهما تجرد من نعمة الحرية.

وفي هذا يقول: (الكرم والتقوى إذا اجتمعنا في شخص فهو حر).

ويقول في الأحرار:

لعمرك ما الرزية فقد دار ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت بموته خلق كثير

وكانت حياته كلها كرما وتقوى وشجاعة، بل كانت كذلك خزائن فكره الظاهر وعقله الباطن. فإذا استشهد لتفسير القرآن على معنى اللمس الموجب للوضوء استشهد رائع الشعر في الكرم.

وألمست كفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه، ما أفاد ذوو الغنى أفدت، وأعداني فبذرت عندي

وإذا تحدث عن بلاغة من يسأل الخليفة الفقيه، فهو يتحدث عن العطاء. وإذا تحدث في صدد السنة يوم بهت الزهري هشام بن عبد الملك فأبلس، فإنما هو يتحدث، في صدد علي بن أبي طالب المثل الأعلى في العلم والشجاعة والندى والتقوى. والزهري في الوقت ذاته مثل الجود الذي لا ضريب له. يعطي كل من جاءه، ويستلف من أصحابه مئات الآلاف ليعطي، ويستلف من عبيده ليعطي، ويقول لمن ذكره بالعواقب: السخي لا تؤدبه التجارب.

والشافعي يعطي لا يخاف عيلة. ويفلس ثلاث مرات فيبيع كثره وقليله وحلي بنته وزوجته، ولا يستدين. ومع ذلك لا يكف عن العطاء بالشمال واليمين. وإذا أعطاه الرشيد مالا أنعم به من خرجه، حتى إذا فجأه الموت أوصى الدولة أن تسدد ديونه.

ويروي الشافعي في ضياع الدين قول عمرو بن العاص: (أصبحت وقد ضيعت من ديني كثيرا وأصلحت من دنيا قليلا) ورفض ابن عباس أن يعظه فيقول: (اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى) – فيرد ابن عباس: (هيهات يا أبا عبد الله تأخذ جديدا وتعطي خلقا).

فإذا رقأنا في الجبل العالي إذا ذروة فقهه، فهو هنالك مع الله والنبي، أي القرآن والسنة. يسبح سبحاته العليا في عالم النور الوضئ، بتقوى الله وكرم النفس، فلا يرى لنفسه حقوقا وإنما يرى عليها واجبات لله والمسلمين. فإذا كان أفضل الفضل إخفاء الفضل كما يقول الإمام علي عن الزهد، فإن الشافعي لا يرى الفضل كله فيقول: (أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله).

ولما أوصى رجل بوصية لأعقل الناس فسرها الشافعي بأنها لأزهد الناس. وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد.

ويروي الشافعي: كان أبو حاتم الطائي يضع الأشياء في مواضعها. وكان حاتم مبذرا. فشكاه أبوه لأصحابه فاجتمع رأيهم على ألا يعطيه، سنة، شيئا.. ثم ذكر له عن ابنه حاتم ما فيه من الضر والضيقة فبعث إليه بمائة ناقة حمراء.. فلما وقفت عليه قال حاتم: من أخذ شيئا فهو له. فأخذوها كلها. فدعاه أبوه. فقال حاتم: والله يا أبت. لقد بلغ مني الجوع شيئا (بحيث) لا يسألني أحد شيئا إلا أعطيته إياه.

ويروي: وقف أعرابي على عبد الملك بن مروان فسلم ثم قال: رحمك الله مرت بنا سنون ثلاث: أما إحداها فأهلكت المواشي. وأما الثانية فأنضت اللحم. وأما الثالثة فخلصت إلى العظام. وعندك مال. فإن كان لله فأعط عباد الله وإن كان لك فتصدق. فإن الله يجزي المتصدقين، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: لو كان الناس يحسنون يسألون هكذا ما حرمنا أحدا.

والشافعي يعلم المروءة ويحدد أركانها للناس ويفرضها على نفسه وعلى ابنه (أبي عثمان محمد) فيقول: لو علمت أن الماء ينقص مروءتي ما شربته. ويلزم نفسه التحرج وحسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك فيقول: "للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك". فكان كل ذلك.

تجيئه الهبات الضخمة فيفرقها. ويرى المعنى النبيل جليلا وإن قل أثره. ويرى المال في يده هينا مهما جل قدره.

ركب حمارا فمر بسوق الحدادين وسقط سوطه في يده فوثب غلام فأخذ السوط ومسحه في كمه ثم ناوله إياه. فقال لغلامه: ادفع الدنانير التي معك إليه. وكانت تسعة أو أكثر. ونصحه تلميذه أبو ثور أن يشتري بمال كان معه ضيعة تكون له ولولده من بعده – فاشترى مضربا بمنى يكون لأصحابه إذ يحجون.

والعلم تعبد وتقوى وتضحية.. وهو يعلم كتاب الله. وأول آيات كتاب الله تأمر الرسول بالقراءة (اقرأ باسم ربك الذي خلق). وهو يعلم سنن الرسول التي تقول (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) فندب نفسه لتعليم المسلمين الطريقة المثلى في طلب العلم: بالكدح المضني وبالتواضع المفطور، وبالتضحية التي ترتجى من الأئمة.

يقول: من لا يحب العلم فلا خير فيه. ولا ينبغي أن يكون بينك وبينه معرفة.

ويقول: العلم حر وطالبه عبد. فإن خدم العلم قبله. فإن تجبر عليه فالعلم أولى أن يتجبر عليه.. ويقول: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح. سنسمع فيما بعد مناظرا في الأندلس يعتذر لابن حزم قائلا: اعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سراج الحراس. فيقول ابن حزم – وقد كان وزيرا ابن وزير –: وتعذرني أيضا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة. وإنما أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر.

وبالتأصيل العميق والتصوير المشوق يجعل فقر العلماء لذا هنيا يدلون به ويستطيلون، فيسميه "فقر اختيار" ويسمى فقر الجهال "فقر اضطرار". ومن قبله قال علي: "العلم خير من المال والعلم يحرسك وأنت تحرس المال". أو كما قال: "العلم حاكم والمال محكوم عليه. والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق".

ويسمعنا الشافعي في شريعة الوفاء للأصدقاء آيات في اصطناعهم واصطفائهم. قال: "من برك فقد أوثقك ومن جفاك فقد أطلقك" و "وليس بأخيك من احتجت إلى مداراته"... "ومن لم تنفعك صداقته فلا تهتم بعداوته" و"لا تقصر في حق أخيك اعتمادا على مودته"..

"وإذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادر بالعداوة وقطع الولاية فتكون ممن أزال يقينه بشك. ولكن القه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا؛ وأجدر أن يسمى المبلغ. فإن أنكر ذلك فقل له أنت أصدق وأبر – ولا تزد على ذلك شيئا. وإن اعترف بذلك فرأيت له وجها بعذر فاقبل منه. وإن لم يرد ذلك. فقل له ماذا أردت بما بلغني عنك.

وإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه. وإن لم يذكر لذلك وجها لعذر وضاق عليه المسلك، فحينئذ أثبتها عليه سيئة أتاها. ثم أنت في ذلك بالخيار: إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة. وإن شئت عفوت عنه. والعفو أبلغ للتقوى، وأبلغ في الكرم؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فإن نازعتك نفسك بالمكافأة، فاذكر ما سبق له لديك ولا تبخس باقي إحسانه. وقد كان الرجل الصالح يقول: رحم الله من كافأني على إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقا لي. يا يونس إذا كان لك صديق فشد يديك به. فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل.."

من أجل ذلك يقول:

وليس كثيرا ألف خل وصاحب وإن عـــدوا واحـــدا لكثيـــر

ويقول: "رضا الناس غاية لا تدرك".

ويقول: "ليس إلا السلامة من الناس سبيل. فانظر ما فيه صلاح نفسك ودع الناس وما هم فيه".

و"لا ينفعك من جار السوء التوقي".

ويقول: "من عف أمن. ومن شرهت نفسه طال همه.. وأظلم الظالمين لنفسه الذي إذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل" و"إذا أيسر الرجل بعد الإقتار شرهت نفسه إلى أربع: ينتفي من ولي نعمته، ويتسرى على امرأته، ويهدم داره، ويبني غيرها".

وإذا كان النطق مسفرة، والصمت مسترة، فالكلمة أغلى القيم عنده. قال لتلميذه: "لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها".

وقال: "من كتم سره كانت الخيرة في يده).

سئل عن أي الأشياء أوضع للرجال قال: كثرة الكلام وإذاعة السر والثقة بكل أحد.

ومع أنه كان يستملح الأماليح. ويحض على الاستمتاع في النزهة فيقول "الوقار في النزهة سخف" فقد كان ينبه على الاعتداء ويقول "الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مجلبة للعداوة. فكن بين المنقبض والمنبسط".

يعطي تلميذه الذي يقوم على حوائجه دراهم يشتري لحما فيشتري سمكا. فيقول: يا ربيع. اليوم نأكل شهوتك وغدا نأكل شهوتنا.. فإذا عاتبه داعبه يقول: "يا طويل الرقاد".

وكان سيد الخلق، عليه الصلاة والسلام "جل ضحكة التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام. فيه دعابة قليلة وإذا مزح غض بصره. طويل الصمت قليل الضحك، فإذا ضحك وضع يده على فيه، وإذا اهتم أكثر من مسك لحيته".

وكان الإمام الشافعي يروي الأفاكيه مثل أن يقول "كان لرجل ابن أبله فبعثه يوما يشترى حبلا طوله ثلاثون ذراعا. فقال الابن لأبيه: في عرض كم؟ قال الأب في عرض مصيبتي فيك".

والاعتدال هو الوسط الأخير، لا يقدر عليه إلا من ضبط الميزان. وهو الذي يهب الحلم، سيد الأخلاق.

والشافعي مضرب المثل في تثبته وتأنيه. وهما خصيصتان للرماة. رأى إنسانا يعجل في عمل فقال له: رفقا رفقا. فإن العجلة توجب الحرمان والرفق وسيلة إلى الوجدان.

ويقول: الكيس العاقل هو القطن المتغافل.. وليس العاقل الذي يختار بين الشر والخير فيختار؛ إنما العاقل الذي يقع بين الشرين فيختار أيسرهما.

ويقول: استفدت من الصوفية كلمتين شريفتين: الوقت سيف. ومن العصمة ألا تجد.

ويقول: أربعة أشياء قليلها كثير: العلة، والفقر، والعداوة، والنار.

ويقول: من ثنم لك نم بك؛ ومن نقل إليك نقل عنك. وإذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك. وإذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك.

وقديما سعى ساع إلى ابن عباس برجل. فقال ابن عباس: إن شئت نظرنا، فإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن كانت صادقا نفيناك؛ وإن شئت أقلتك. قال: هذه..!

والشافعي يقول: إن قبول السعاية أضر من السعاية.

وسنقرأ له القريض الجيد في التنبيه على الإحسان عند اغتنام الفرص، فيقول:

إذا هبـــت رياحـــك فاغتنمهـــا فعقبـــى كـــل خافقـــة ســـكون
ولا تغفـــل عـــن الإحســـان فيهـــا فـــلا تـــدري الســـكون متـــى يكـــون

***

وكأنما كان يضع صورة حياته في إطار من الشعر فيقول:

ســـافر تجـــد عوضـــا عمـــن تفارقـــه وانصـــب فإن لذيذ العيش في النصـــب
إنـــي رأيـــت وقـــوف المـــاء يفســـده إن ســـاح طـــاب وإن لـــم يجـــر لـــم يطـــب
الأســـد لـــولا فـــراق الغـــاب مـــا افترســـت والســـهم لـــولا فـــراق القـــوس لـــم يصـــب
التبـــر كـــالترب ملقـــى فـــي أماكنـــه والعـــود فـــي أرضـــه نـــوع مـــن الحطـــب

وفي هذه الأبيات صور للرحالة الذي يبرح أرضه كالعود يزكو بنقله، والعسجد الحر لا ينفع الناس إلا أن يخرج من باطن الأرض، والأسد لا يستطيع الحياة هامدا أو قاعدا، والماء الذي يحيى الأنفس لا يطيب إلا إذا جرى، والسهم لا يصيب إلا إذا انطلق، وما هي إلا تصويرات فنية لمجاهد سياح في الأرض، كتب على نفسه الرحلة. أو صور الشافعي لنفسه، بقلمه ونظمه.

الفصل الثاني

إمام اللغة

زادت الدراسات الفقهية الشافعي بصرا بالقرآن، وثبت تذوقه النفسي تفوقه اللغوي، فلم يقف في الهدى القرآني عند حدود. وطفق يواصل هذين التذوق والتفوق آناء الليل والنهار. يختم القرآن ثلاثين ختمة في الشهر، يراجعه مرة كل ليلة، ثم يدرسه في النهار وإلى جواره الفقه والأدب والسير مع المناظرة القائمة على الاستشهاد بالآيات والأحاديث.. حتى إذا كان شهر رمضان تضاعف الدرس فختم القرآن مرة في الليل ومرة في النهار فكان التفقه في اللغة يزيده تفقها في القرآن، وكان التفقه في القرآن يزيده تفقها في العربية. فصحت له لغة لم يتح مثلها لآخرين، وفي ذلك يقول الجاحظ:

"نظرت كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي: كان لسانه ينظم الدر".

بهذا التعبير الخفي الذي يقطر محبة. قدر صاحب المنهج العلمي والتجريد المعتزلي، محمد بن إدريس. وهو تقدير لم يمنحه الجاحظ أي أسلوب من الأساليب. والجاحظ من الأئمة الذين تشرئب الأجياد إليهم في الكتابة العربية والعلوم الإسلامية، فوق أنه من أقسى النقدة. وكان واحدا من رقباء عصره. عاصر الشافعي وطالت حياته بعده. وهو من أئمة المعتزلة، وعداء المعتزلة لأهل السنة مشهور.

والزمخشري [٨]، صاحب أساس البلاغة وصاحب الكشاف عن حقائق التنزيل، من أئمة المعتزلة أيضا، وهو حنفي. ومع تعصب بعض علماء المذهب الحنفي ضد الشافعي، يعترف له بالمكانة العليا في اللغة، في مواضع كثيرة كموضع تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾ حيث يتحدث عن الشافعي فيما نقل عنه ثم يقول "وكفى بكتابنا المترجم بكتاب شافي العي من كلام الشافعي، شاهدا بأنه كان أعلى كعبا وأطول باعا في كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا [٩]" وأبو منصور الأزهري يصنع صنيع الزمخشري فيؤلف كتاب في شرح مشكلات ألفاظ

---

(٨) يقول السيوطي فيه: (ثم جاءت فرقة أصحاب نظر في علوم البلاغة، التي بها يدرك وجه الإعجاز، وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة. ولذا صار كتابه في أقصى درجات الشرف).

(٩) يقول الزمخشري مباعدا بينه وبين المذهب الشافعي:

إنـــي بـــدين ولائهـــم متشـــيع لهمـو ولسـت بشـافعي المـذهب

ومع ذلك فهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾.

(... من قولهم عال الميزان عولا إذا مال. وميزان فلان عائل. وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروى أن أعرابيا حكم عليه حاكم فقال له: أتعول علي؟ وقد روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن لا تعولوا: أن لا تحوروا) ويقول: (والذي يحكي عن الشافعي رحمه الله أنه فسر "أن لا تعولوا": أن لا تكثر عيالكم. وكلام مثله من أعلام العلم. وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد. وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلا تعولوا.. وكفي بكتابنا المترجم بشافي العي من كلام الشافعي شاهدا بأنه كان أعلى كعبا وأطول باعا في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا. ولكن للعلماء طرقا وأساليب. فسلك في تفسير هذه الكلمة. طريق الكنايات.. وقرأ طاوس: أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي).

الشافعي يسرد فيه ألفاظه الفصيحة، وألف كثيرون غيرهم من علماء اللغة مثل نفطويه في أسلوبه وشرح ألفاظه.

وكان لنطقه عذوبة تمتع السمع. بل كان ارتجاله درجة أعلى من كتابته.. وقد ظهرت هذه الظاهرة في كل مكان. كان يوما في بغداد يتحلق التلاميذ حوله فوجدوا بينهم قوما من غير طالبي الفقه. قال لهم تلميذه "الزعفراني" لم تختلف معنا (تجلسون إليه)؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي [١٠]. ويقول تلميذه الربيع قولا عجا عن كتبه التي هي أرفع أساليب الكتابة العربية في الفقه وأروع

ويقول الفخر الرازي (٦٠٦هـ): ذكر الأزهري في جوابه عن هذا الطعن.. عن الكسائي أنه قال قال (سمعت كثيرا من العرب يقول: عال الرجل إذا كثر عياله. ثم قال: وأعال أكثر من عال.. والظاهر أن الشافعي لم يقل ذلك حتى حفظه وعرفه) في صدد آية الطهارة يقول الزمخشري (ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم للصلاة محدث وغير محدث. فما وجهه؟ قلت يحتمل أن يكون الأمر للوجوب فيكون للمحدثين خاصة. وأن يكون للندب) ويعلق عليه أحمد بن المنير (٦٨٣) المفسر المالكي الكبير وعالم اللغة، في كتابه الانتصاف (قال أحمد: الزمخشري أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد في معانيه على الجمع وقد سبق له إنكار ذلك. ومن جواز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك في الآية. ومن المجوزين لذلك الشافعي رحمه الله تعالى. وناهيك بإمام الفن وقدوته).

والزمخشري حنفي، والرازي شافعي، وابن المنير مالكي.. ولكن مذهبهم واحد في إمامة الشافعي في اللغة.

(١٠) يقول ابن الحاجب في تعريفه: وهي لغة الشافعي كما يقولون لغة تميم وربيعة. قد عبر المرحوم الشاعر علي الجارم عن أصالة لغة الشافعي حين قال إن كلمة "النذارة" التي لا توجد في معاجم اللغة – إلا في معجم القاموس – تدل، إذ توجد في كتاب الرسالة، على أن الكتاب له، بمثل دلالة التوقيع على صاحب التوقيع.

ذخائر البلاغة في التعبير العلمي (لو رأيت الشافعي وحسن بيانه لتعجبت منه. ولو ألف هذه الكتب على عربيته التي يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه غير أنه كان يجتهد في تأليفه في أن يوضح للعوام).

وفي ذلك يقول عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية وعالم اللغة العربية (٢١٣): "طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها". ويقول: "الشافعي كلامه لغة يحتج بها".

أما أن يكون كلام الشافعي "لغة يحتج بها" فمعناه أن لغة العرب تأخذ منه الدليل على صحتها، وهي درجة لم يبلغها في اللغة إلا الأقلون قبله.

وأما عدم اللحن فقد يكون أمرا شائعا لدى البلغاء والفصحاء.. لكن الذي ليس متاحا للقلة، إلا من أنعم الله عليهم، هو أن يتحدث المتحدث فتكون كل كلمة يقولها لا يوجد غيرها أحسن منها، وأن تكون الشهادة بذلك شهادة عيان، من عظيم في اللغة العربية وتاريخ الإسلام مثل ابن هشام، بما قد رأى وقد سمع.

ويبلغ الإعجاب أبعد شأوه، إذ يكون إعجابا بكلام المتحدث المرتجل، فما بالك بكتابة المتفحص المتمهل.

يقول أبو منصور الأزهري [١١] "عكفت على المؤلفات التي ألفها علماء الأمصار فألقيت الشافعي أغزرهم علما وأفصحهم لسانا وأوسعهم خاطرا". "وهذا أبو العباس ثعلب [١٢] يقول: (العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة عن الشافعي وهو من بيت اللغة، والشافعي يجب أن يؤخذ منه اللغة لا أن يؤخذ عليه اللغة) يعني أن ألفاظه، بذاتها لغة يحتج بها، وليس مجرد ناقل للغة العربية فتنقل عنه اللغة.

وهذا أبو العباس المبرد – صنو ثعلب وقرينه – يقول "رحم الله الشافعي كان من أشعر الناس وأدب الناس وأعرفهم بالقراءات" [١٣].. وهذا المازني [١٤] يقول: "الشافعي عندنا حجة في النحو". وكمثل هؤلاء نفطويه [١٥] يؤلف كتابا في مناقب الشافعي يذكر فيه ألفاظه الفصيحة.

فلا عجب أن نقرأ في القاموس في بعض الأحيان كلمات (وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه).

---

(١١) (٢٨٢ – ٣٧٠) صاحب (تهذيب اللغة) وكتاب التقريب في التفسير وعلل القراءات، وكتاب تفسير ألفاظ المزني.

(١٢) شيخ العربية وإمام الكوفة في اللغة والنحو (٢٠٠ – ٢٩١) شارح ديوان زهير، وديوان الأعشى. كان أهل الكوفة يقولون لنا ثلاثة فقهاء على نسق لم ير الناس مثلهم: أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ولنا ثلاثة نحويين: الكسائي والفراء وثعلب. قال المبرد: أعلم الكوفيين ثعلب فذكر له (الفراء) قال: ولا يعشر.

(١٣) كان الأوائل يقولون عن المبرد وثعلب: العالم بينهما.

(١٤) مات سنة ٢٤٩ وكان إماما في النحو واللغة والأدب.

(١٥) إبراهيم بن محمد بن عرفة (٢٤٤ – الأزدي ٣٢٣) له كتاب غريب القرآن.

ولا يحمل عالم من علماء اللغة على الخطأ ما يشذ من كلام الشافعي عن القواعد المعروفة لديه في العربية. فهو لغة الشافعي. يجعل شاهدا على ما يستعمل فيه وحجة في صحته.

ولئن كان ما أثر عن غيره من الفقه ثروة عظمى، إن ما خلفه لنا الشافعي كان طرازا جديدا على غير مثال من المؤلفات الطوال، مقسمة مبوبة، من كتابته أو إملائه أو الرواية عنه، على نسق الكتب العصرية التي تتصدى لأدق العلوم، في تعبيرات رائعة أثرى بها التراث الأدبي وازدهر، لقوتها وروعة أساليبها، فلم يبلغ مبلغها تراث أدبي عالمي من ناحية الوفرة في الأقدمين، ولم يعل علوها في الأسلوب غيرها في العصور التالية لها.

كان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون فقيها دارت عليه الفتيا بالمدينة، وعلى أبيه من قبله، تفقه بمالك، وتعلم العربية في بيته وبيت أخواله، قبيلة كلب بالبادية، فبلغ في الفصاحة مبلغا جعل تلميذه أحمد بن المعذل، الذي نشر فقه مالك بالمشرق، يقول: كلما تذكرت أن التراب يأكل لسان عبد الملك، صغرت الدنيا في عيني! كان يناظره تلميذ آخر في حلقة مالك، تعلم العربية – مثله – بالبادية، هو الشافعي. فكان الناس لا يعرفون كثيرا مما يقولون ويعجزون عن متابعتهما.

وكان للكلمات العربية إذ تنحدر من أفواه غيره. مذاقها عنده. كأنما تتردد في فمه وبين أضراسه. قرأ عليه رجل فلحن، قال: أضرستني.

وكان يعرف أن أهل الحديث لا يحتملون تبحره في الأدب ارتفاعا منهم بمستوى الحديث والتفقه فيه عن الإفراط في الشعر.

روى مصعب الزبيري [١٦] قال: كان أبي والشافعي يتناشدان فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظا وقال: لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا.

***

وأول ما يبده القارئ من أسلوب الشافعي جزالة ألفاظه ووجازة عباراته وقوة أثره.

أما الجزالة، وما يتبعها من الصحة والسلامة، فهما كمثل ألوان العافية التي تلوح وجوه العائدين من الصحراء، حيث الفصحى خالصة يتراضعها العرب الخلص من لبان البادية. كما رقق قوله ورقاه إدامة قراءة القرآن.

وأما الإيجاز فآية البلاغة في الشعر والنثر.

وأما قوة التعبير والتأثير فقد ساعدت عليها أمور، منها طبيعته وما سكب فيها من فيوض القوة والفتوة. ومنها نزعته الخطابية التي تتبدى في كتابته. ومنها أن كثيرا من كتابته إملاء، قد يتيح الفرصة للانتقاء. ومنها دراساته للشعر الجاهلي، وقرضه الشعر طوال حياته. ومنها طبيعة الفنان. يسلك ألفاظه في جملة. كأنما يسلك الجواهر في عقود الجمان. ومنها كنوزه التي لا نظائر لها من اللغة الفصحى، وأساليبه التي لا تباري في التصرف في الألفاظ، لكل لفظة جمالها الخاص بها وكمالها، كوعاء للمعنى، دون أن تتداخل معاني الكلمات. وكأن لكل كلمة قيمة رقمية معينة أو صورة هندسية محددة، أو قوة فئات العملة لا تزيد ولا تنقص، ومن كل ذلك الضبط ينبعث اللمعان اللؤلؤي والنغم الموسيقى والائتلاف الوضئ. في المسلك والسبك.

---

(١٦) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (١٥٦ – ٢٣٦).

بعبارات قصيرة، أو طويلة متتابعة، لكل منها حجتها، ولمجموعها الحجة البالغة، كمثل وثبات الجواد المنطلق، تسكر البصر بالحركة الدقيقة المنضبطة، مع جمال هيكله وحسن شكله، وهو يوفي على الغاية.

وكأن العين إذ تبصر بالكلام جملة وفرادى، في اتساقه وانطلاقه، تشهد البلور المذاب في انسيابه وائتلافه، أو تسمع وترى آلات النغم قد توفرت عليها أنامل أستاذ.

وكما تجد في البيت الواحد من القصيدة كمال الوحدة تجد في الجملة الواحدة من كلام الشافعي، وربما في الكلمة الواحدة، ما في النثر العظيم من كمال الوحدة وتمام المعنى.

من أجل ذلك تحس في لغة الشافعي طعما سائغا في الفم؛ وتوقيعا بديعا في الأذن، صنجا أو جرسا كما شبهه سامعوه، ينساب من ذاته المنطلقة، كالجداول المتدفقة، فتلمس قوة السرد ودفع المدافع، وحوارا بين الأشخاص يجري على القرطاس، مع الحركة والتنوع الذي ينقل القارئ كل نقلة، وينفض عنه الكآبة، كدأب سادات البلاغة، الذين يملكون النفس فإذا العين والفم والأذن قد تكافلت مع الذوق والذهن لتأكيد وجود الخطيب، وإشارات المعلم وإبداع الشاعر. ولذلك يحس قارئه دائما بحاجة إلى القراءة بصوت عال ليتذوق الجمال. وكأنه يشارك في محاورات تجري أمامه، أو كأنه في حلقه من حلقات المحاورات في مدرسة أبي حنيفة، أو الأكاديمي في عهد أفلاطون، أو الليسيه في حياة أرسطو.

وربما سبق الشعر النثر في الوجود. ولقد سبقه بيقين في وجود الشافعي. فجاء نثره الذي كتب به كتبه بعد شعره الذي تعلم قرضه أو حفظه في البادية. وجاءت كتابته من منطقه، ونبعت

من نفثه وبثه. وبهذا المزاج الرفيع من أسباب القوة في الأساليب ارتفع الشافعي بأسلوب الكتابة الفقهية إلى أعلى مستويات البلاغة [١٧].

---

(١٧) إليك أمثلة يظهر منها بعض خصائص اسلوبه ومن أظهرها كثرة الحذف والإيجاز: حذف أن المصدرية قبل المضارع مثل قوله في الرسالة: أنت محسن متسرع بتقديمه قبل يحل عليك. وقوله: تحرس الطائفة الأولى في ركعة ثم تنصرف المحروسة قبل تكمل الصلاة. وقوله: كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها.

ومثل قوله: لأن الصبح تفوت بأن تطلع الشمس قبل يصلي منها ركعة. وقوله: فأمر من لم يحسن يقرأ ولا يجزيه إذا لم يحسن يقرأ.. إلا.. وقوله ولا أنهي رجلين قبل يتبايعا ولا بعدما يتفرقان.

- حذف اسم كان للعلم به مثل قوله: (قد يحتمل أن يكون النهي عن بيع) يقصد أن يكون المراد النهي.
- حذف خبر كان للعلم به مثل قوله: (إما أن يحتاط فيكون، وإن كانت..) يقصد فيكون أوثق عنده.
- حذف كان ومعموليها، مثل قوله: (قال وإن، فليس من العبد). يقصد وإن كان كذا وكذا فليس من العبد.
- حذف الفعل لدلالة الفاعل والسياق مثل قوله: (ولو قضى النبي بنصف العشر على العاقلة أن يكون قائل..) يقصد: أيجوز أن يقول قائل..؟
- حذف النون في الأفعال الخمسة تخفيفا من غير ناصب ولا جازم مثل قوله: "وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة ويتركونه أخرى، ويتفرقوا في بعض ما أخذوا به منهم). ومثل قوله: "وقال نفر من أصحاب النبي" (الأقراء الحيض) فلا يحلوا المطلقة حتى تغتسل من الحيضة الثالثة.
- حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه، مثل قوله: (وذكر تغليس النبي بالفجر سهل بن سع، وزيد بن ثابت.. شبيه، بمعنى عائشة). ويقصد: بمعنى حديث عائشة.
- حذف الموصوف وإبقاء الصفة مثل قوله: (لما يعرض للآدميين من الأشغال والنسيان والعلل الذي لا تجهله العقول)، يقصد الأمر الذي لا تجهله العقول ومثل قوله: (وأي هذا كان، فقد بين الله أنه فرض

فيه طاعة رسوله ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه. وفيما ليس فيه نص كتاب، أخرى. فهي كذلك أين كانت). يقصد بأخرى: سنة أخرى.

- ينصب الشافعي في أكثر من موضع اسم كان الذي يرد بعد الجار والمجرور، مثل قوله: (فكان مما ألقى في روعه سنته). (وقد كان لرسول الله في هذا سننا ليست نصا في القرآن..). وقوله (ثم كانت لرسول الله في بيوع سوى هذا سننا منها..٩. وقوله: (احتمل أن يكون فيها شبها..).

- وهذه اللغة نجد مصداقا لها في الحديث الشريف: (خمس صلوات كتبهن الله على خلقه، فمن جاء بهن لم يضيع منهن استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهدا أن يدخل الجنة).

- تذكير الفعل المؤنث المجازي، مثل قوله: (فاختلف صلاتهم..)؛ والقرآن يقول: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية).

- إنابة الجار والمجرور بنائب الفاعل، مع ذكر المفعول منصوبا مثل قوله: (لا يحفظ عن غير، منهم فيه له موافقة ولا خلافا). وقوله: (يحكم فيه حكما واحدا) وقوله: (أكان يجوز أن يشتري بالدنانير والدراهم نقدا عسلا وسمنا إلى أجل؟).

- يستعمل (أبو) في الجر، فيقول: (عن سالم أبو النضر). ومن العرب من يكتبون على بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان؛ وإن كان ذلك غير مشهور. وكان عمر يعزم على أبي موسى أن يرب كاتبه إذ يقول : (من أبو موسى).

كلمات خاصة:

وإليك أمثالا لكلماته الخاصة:

- يتكلم عن القرآن، دائما، غير مهموز. ويقول: إنه ليس من قرأت.. تلك كلماته (وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين. وكان يقول: (القرآن) اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت = ولو أخذ من قرأت لكان كل

ما قرئ قرآنا – ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة، والإنجيل فيهمز (قرأ) ولا يهمز القرآن ولقد تعلم إسماعيل هذه القراءة عن.. عن ابن عباس عن أبي بن كعب الذي قرأ عن النبي.

ونقل في لسان العرب في مادة (قرأ) نحو هذا عن الشافعي وزد (.. كان أبو عمرو ابن العلاء عالم اللغة بالكوفة. لا يهمز القرآن..).

وكان ابن كثير مقرئ مكة يقرأ كذلك بلا همز. وقال آخرون: إن القرآن مصدر قرأ. وآخرون: إن لفظ القرآن مشتق من القرء بمعنى الجمع وسمي قرآنا لأنه يجمع السور ويضمها وهو كل حال اسم لمجموع النظم الذي نزل على النبي، والمعنى المستفاد منه.

- ويقول: (ليعتبروا في أنف الأوان.. وينتبهوا قبل رين الغفلة) أنف الأوان: هو الجديد، المستأنف، وكل ما غطى شيئا فقد ران عليه.

- النذارة بمعنى الإنذار والنذير في قوله: (فخص جل ثناؤه قومه (قوم النبي) وعشيرته الأقربين في النذارة. وعم الخلق بها بعدهم ورفع القرآن ذكر رسول الله. ثم خص قومه بالنذارة إذ بعثه فقال: (وأنذر عشيرتك الأقربين).

قال في القاموس: (النذير: الإنذار كالنذارة. بالكسر وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه).

- الأب = الأب.

- تختلف السنن وتاتفق – تاتفق مضارع ايتفق – ياتفق فهو موتفق. لغة أهل الحجاز.

- فكل أمر، موتفق صحيح.

يخلص بين الحالتين – يفرق – يفصل.

متكافيين: متكافئين. نسية = نسيئة: مؤجلة.

وقد أوهم بعض الناس: وهم

الموتصل: المتصل.

- يا تكل على غير: يتكل.
- أقام الشيء = قومه. إقامة الشيء: تقويمه. واستعمال الشافعي فعل أقام إثبات للتعدية بالهمز؛ ولغته حجة. جاء في هذا المعنى في اللسان (قوم السلعة واستقامها قدرها).

استقمت يعني قومت. وهذا كلام أهل مكة. يقولون استقمت المتاع: أي قومته.

- كهو = كمثله يقول (وكان عمد الكلام وأنت تعلم أنك في صلاة كهو إذا تكلمت وأنت ترى أنك أكملت الصلاة).
- كهي = يقول: هل كانت لك حجة إلا كهي عليك.
- إما قوت وإما غذاء وإما هما.
- تيسر: تصير يسيرة.
- سار بلادا: أي إلى بلاد أو في بلاد.
- تحرف: بمعنى احترف، ومصدر، التحرف. والاسم: الحرفة.

يقول الشافعي: (وكسب الغلام.. إنما هو شيء تحرف فيه فاكتسبه).

- هدر: بمعنى أهدر.
- قضى على: قضي ب.
- لها النصف وأرد عليها النصف. وأرد: أردد: لغة أهل الحجاز.
- مؤتنف مستأنف.
- البيع (يتم البيع بين المشتري وبين يبعه الآخر). البيع: البائع والمشتري والمساوم.

- ترغبت المرأة عن خاطبها وشتمته.
- تزيل – زيل حاله: تباين.
- أسلكه سبيل السنة.
- شكر، فيها: شاركه.
- يعري من الذنب: يخلص من الذنب.
- غزا رسول الله. وغزي معه جماعة.
- يفدحه ويفدحه الغرم.
- ما نبته الناس: غرسوه.
- عمد خلافها: عمد إلى خلافها أو لخلافها.
- العنود عن أتباع السنة: العناد – العتو، وهو مصدر سماعي.

وفي حديث للشافعي عن الإبل وأوصافها وأسنانها تظهر آثار البادية وتلقيه اللغة من مصادرها. قال: إذا وضعت الناقة قيل لولدها ربع. والأنثى ربعة، وهو في هذا جوار والانثى حوارة فلا يزل حوارا حولا ثم يفصل. فإذا فصل عن أمه فهو فصيل والأنثى فصيلة. والفصال هو الفطام. فإذا استكمل الحول ودخل في الثاني فهو (ابن مخاض) والأنثى (بنت مخاض) وإنما سمي ابن خاض لأنه قد فصل ولحقت أمه بالمخاض وهي: الحوامل – فهو ابن مخاض وإن لم تكن حاملا. فلا يزل ابن مخاض السنة.. كلها.. فإذا دخل في الثالثة. فهو ابن لبون والأنثى لبون، وإنما سمي ابن لبون لأن أمه وضعت غير، فصار لها لبن فهي لبون وهو لبن لبون.

فلا يزل كذلك السنة الثالثة كلها. فإذا.. دخلت الرابعة فهو حينئذ حق والأنثى حقه. وإنما سمي حقا لأنه استحق أن يحمل عليه ويركب.. فلا يزل كذلك حتى يستكمل أربع سنين ويدخل في السنة الخامسة فهو إذن

والشعر فن والفن تعبير رفيع عن الذات. ولمعالجة الشعر ونظمه تأثير جلي في شخص الإنسان وفكره وتعبيره. وقديما قيل: الأسلوب هو الرجل.

ولقد استقر في كل اللغات أن معالجة النظم أساس لتجويد العبارة، باختيار اللفظ الملائم للمعنى والمكان، وانتقاء التركيب السائغ الوقع في السمع، واشتقاق الكلمات وتحتها وسبكها، وإضفاء السلاسة إلى جوار السلامة، والإشراق إلى جوار القوة، والمتعة إلى جوار الفائدة. وحشد المعاني العظيمة والكثيرة في الكلمات القليلة أو الصغيرة، لما يودعها الشاعر من إيماءات توحي بقصده، أو إضمار كله الوضوح أو إيجاز فيه غناء الإسهاب، دون إكراه للكلمة أو العبارة.

فإذا اجتمعت للناثر الفحل الحافظة الزاخرة، والنفس الشاعرة، والمران على النظم [١٨]، مع التحرر من قيوده، اجتمع له من أسباب البلاغة كفل زاخر. فترقرقت الرشاقة العذبة مع الفخامة السهلة. يكاد يحسها القارئ بيده إذ تلمس الصفحات. فتتعاون الحواس في الاستمتاع بمنثور كله الشعر. وتمسي

جذع. والأنثى جذعة... فإذا دخل في السادسة فهو حينئذ ثني. والأنثى ثنية. وهو الذي يجزي في الهدى والضحايا من الإبل والبقر وأما الضأن فهو يجزئ منها الجذع.. فإذا دخلت السنة السابعة فهو حينئذ رباع والأنثى رباعية – فلا يزل كذلك حتى تمضي السنة السابعة فإذا.. دخل السنة الثامنة فهو حينئذ سدس وكذلك الأنثى سدس.. فإذا دخل في السنة التاسعة فهو حينئذ مخلف وكذلك الأنثى مخلف، ثم ليس له اسم بعد الإخلاف. ولكن يقال له: بازل عام وبازل عامين – ومخلف عام ومخلف عامين، إلى ما زاد على ذلك. فإذا كبر فهو عود والأنثى عودة.

(١٨) بدأ كثير من كبار الناثرين في عالم الغرب حياتهم الفنية بنظم القريض، ومنهم جماعة من المجمع العلمي الفرنسي أو من أكاديمي "جونكور"، وحسبك من هؤلاء وهؤلاء: سانت بيف، وأناتول، فرانس، وبول بورجيه، وموباسان، والفونس دوديه، كما نبه على ذلك زميلهم جاك بانفيل.

المعاني الخاصة الراقية بشكلها وموضوعها في متناول مدارك العامة، بقوة البساطة الملهمة، ويسر الأصالة التي تملك الأفئدة. وروعة التعمق.

ويتعالى أسلوب الشافعي في وجازته وجزالته وإشراق ديباجته وفيضانه إلى أجواء روحانية عالية تسمو بالفقه عن ضجة الجدل وزحمة الحلق، إلى ما يشبه المناجاة عند ذكر الرسول. فيقول. (بأبي هو وأمي). ويكثر الحمد والشكر لله على سابغ نعمه، ويحمل ذهن القارئ على براعته، كالزورق الذي يتهادى على التيار، فيحس أن الكاتب يعبد الله بما يكتب، وأن القارئ فيما يقرأ يتعبد.

وبهذه النفس الشاعرة والأسلوب الذي لا يسامي والحب الذي هو العبادة حول الشافعي الكتابة إلى أسمى تعبير فتى عن العلم. وأضاف إلى اللغة العربية كنوزا ألاقة في التعبير الفقهي لم يعرف لها نظائر. ووجدت المدرسة الكبرى للبلاغة والجدل العلمي. لنسمع فيما بعد قول الإمام داود الظاهري في الشافعي "من تعلق بشيء من بيانه صار محجاجا".

وبهذا التفرد في اللغة وأسلوبها صار الشافعي إماما في اللغة العربية.

***

الشاعر:

قال الشافعي: لا يكاد يجود شعر القرشيين لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم "وما علمناه الشعر وما ينبغي له" ولا يكاد يجود خط القرش، لأن النبي ما كان يكتب بدليل قوله (ولا تخطه بيمينك).

لكن الشافعي كان أكثر الأئمة كتابة بيده وبإملائه، وكان شاعرا صح عنه الشعر الجيد. فذلك قول المبرد إنه من أشعر الناس. وصح عنه – على الأقل – شعر الحكمة الذي يجمل بالفقهاء. وهي أولى بالأئمة.

على أن أغراض الشعر التي يبيحها فقهه قد تفسر قلة الصحيح عنه.

قال في شهادة الشعراء: "الشعر كلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، غير أنه كلام باق سائر، فذلك فضله على الكلام. فمن كان من الشعراء لا يعرف بنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب، لم ترد شهادته.. ومن أكثر الوقيعة في الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك ظاهرا كثيرا مستعلنا. وإذا رضي مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا كذبا محضا؛ ردت شهادته، بالوجهين، وبأحدهما لو انفرد. وإن كان إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق، أو يفرط فيه بالأمر الذي لا يمحض أن يكون كذبا، لم ترد شهادته.

ومن شبب بامرأة بعينها ليست ممن يحل له وطؤها حين شب، فأكثر فيها فشهرها وشهر مثلها ما يشبب، وإن لم يكن زنى، ردت شهادته.

ومن شبب فلم يسم أحدا لم ترد شهادته، لأنه يمكن أن يشبب بامرأته، وجاريته. وإن كان يسأل بالشعر ولا يسأل به فسواء.

وفي مثل معنى الشعر في رد الشهادة من مزق أعراض الناس وسألهم أموالهم، فإذا لم يعطوه إياها شتمهم.."

فاتخاذ الشعر وسيلة للرزق لا بأس به عنده، فذلك فن. والفن عمل فكري، وفيه تهذيب وتأديب وتجميل للحياة وتعبير عن النفس. إنما البأس على المشببين الذين يسيئون لامرأة بذاتها وبنظيراتها.

والذين لا ينسبون إلا بسائهم قلائل. ولهذا كان مأثرة امتاز بها نصيب بين فحول الشعراء أنه لم ينسب قط إلا بامرأته.

فإذا كان مفهوما أن علة عدم رد الشهادة هي احتمال أن يشبب بامرأته أو جاريته، وذلك التزام لقواعد المنطق، فإن هذا الاحتمال ذاته كاف ليبعد أهل الفضل عن التشبيب. والغلواء منقصة، والعجب المهلك أو الترافع بعض أعراض المباهاة، وكثيرا ما تتردد المباهاة في شعر الحماسة. فلا يبقى مباحا لذوي التقى والورع إلا القليل.

سأل عبد الملك بن مروان أرطأة بن سهية كيف أنت في شعركظ قال يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب، ولا أرغب ولا أرهب، ولا يكون الشعر إلا من هذه الأربع..

وروى عن الشافعي أنه قال:

ولـولا الشـعر بالعلمـاء يـزري لكنــت اليــوم أشــعر مــن لبيــد

وفيما خلا المحظور على أهل الورع، فإن إنشاء الشعر أو إنشاده موهبة كانت للشافعي مصدر قوة.

استنشد النبي من شعر أمية بن أبي الصلت مائة بيت وقال "إن كاد ليسلم" واستنشد أبا بكر من شعر قس بن ساعدة.

وعروة بن الزبير يقول عن خالته: ما جالست أحدا أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهلية لا أروى للشعر ولا أعرف بفريضة ولا طب من عائشة.

كان النبي يقول لها: يا عائشة ما فعلت أبياتك؟ فتنشده من حفظها في الشكر.

وقال لحسان بن ثابت "هل قلت في أبي بكر مثلا.. قل وأنا أسمع. قال. فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه وقال: صدقت يا حسان هو كما قلت".

وقال لحسان "اهج المشركين وجبريل معك [١٩]". وروى البراء بن عازب: لما كان يوم حنين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم والعباس وأبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وهما آخذان بلجام بغلته وهو يقول:

---

(١٩) كان المسلمون أشداء على من هجاهم بشعر. فهو كلام باق سائر كما يقول الشافعي:

في الشهر التاسع من الهجرة: قتل عمي بن عدي – وكان أعمى – عصماء بنت مروان، لتحريضها على المسلمين وهم بدر يحاربون وكانت تقول في النبي.

ترجونـــه بعـــد قتـــل الـــرءو س كمـا يرتجـى عـرق المنضـج

وقال حسان بن ثابت يمدح عميرا:

فهـزت فتـى مـا جـدا عرقـه كـــريم المـــداخل والمخـــرج
فضـــرجها مـــن نجيـــع الـــدما ء قبيـــل الصـــباح ولـــم يحـــرج

- وفي الشهر العشرين قتل أبو عفك وكان يهوديا في العشرين بعد المائة من العمر يحرض الناس بشعر، على الرسول بعد إذ أظفر، الله ببدر.

- في الشهر الخامس والعشرين قتل ابن الأشرف – من زعماء اليهود – كان قد ذهب إلى مكة بعد بدر يؤلب العرب على النبي ووضع رحله عند أبي وداعة، وزوجته عاتكة (بنت أسيد) فجعل يرثي قريشا، بعد هزيمتها في بدر، بشعر جاء فيه:

طحنـت رحـى بـدر لمهلـك أهلـه ولمثـــل بـــدر تســـتهل وتـــدمع

فقال حسان شعرا جاء فيه:

ألا أبلغـا عنـي (أسـيدا) رسـالة فحالـــك عبـــد بالســـراب مجـــزل

فلما بلغ عاتكة بنت أسيد هجاؤه نبذت رحل ابن الأشرف وقالت لزوجها: ما لنا ولهذا اليهودي. ألا ترى ما صنع بنا حسان؟ فتحول. فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله حسان فقال (ابن الأشرف نزل عند فلان) فلا يزل يهجوهم حتى ينبذ رحله. فلما لم يجد مأوى عاد إلى المدينة. قال الرسول: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر وقوله الأشعار. وقال (من لي بابن الأشرف فقد آذاني).

قال محمد بن مسلمة (أنا به يا رسول الله وأنا أقتله) وسار إليه في جماعة فأنزلوه من صياصيه وقتلوه. وفزع اليهود والمشركون وقصدوا إلى النبي يشكون. قال عليه الصلاة والسلام: إنه لو قر كما قر غير، ممن هو علي مثل رأيه ما اغتيل. ولكنه قال منا الأذى وهجانا بالشعر. ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف.

أنـــا النبـــي لا كـــذب أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب

ودعا النبي المرتجز ليرتجز في المسير لخيبر. وارتجز أولاد الخنساء الأربعة وهم يسقطون دراكا يوم القادسية، فلما خبروها مصارعهم قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم.. فكان عمر يعطيها أرزاق أبطالها الأربعة.

ولما أسر أبو جرول – يوم حنين – أنشد النبي شعرا للعفو عنه فقال (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فلله ولكم) فردت الأنصار ما كان في أيديها من الذراري والأموال..

وأنشده كعب بن زهير (بانت سعاد) تائبا فكساه بردة، اشتراها معاوية فيما بعد بمال كثير.. وصار يلبسها خلفاء بني أمية في العيدين.

وهو عليه الصلاة والسلام يقول: "إن من الشعر لحكمة" و"إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما".

وذات يوم كان ابن عباس بالمسجد الحرام وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا. فأنشده قصيدة من الشعر حتى جاء على آخرها.. قال أحد الحضور: الله يا ابن عباس. إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك.

رأت رجـلا أمـا إذا الشـمس عارضـت فيخـزى وأمـا بالعشـي فيخسـر

قال: ليس هكذا.

قال الرجل: كيف؟

قال: رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيحصر

قال الرجل: ما أراك إلا وقد حفظت البيت.

قال: أجل. وإن شئت أنشدك القصيدة. وأنشده إياها، حتى أتى على آخرها. ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة وما سمعها قط إلا تلك المرة.

***

وربما دل على أن بعض الأشعار المنسوبة إلى الشافعي ليست لها أنها أو هي في الأسلوب من نثره المرسل، المسوق بين قضايا المنطق الدقيق وأحكام الفقه العويص.

ولكن من شعره ما يصح مثله عن مثله. وإن تفاوت في الدرجة.

من ذلك تعزية أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدي زعيم المحدثين بالعراق:

إني أعزيك لا أني على ثقة من الخلود ولكن سنة الدين
فلا المعزى بباق بعد صاحبه ولا المعزى وإن عاشا إلى حين

وسينشدها المازني فيما بعد في عزاء بعض الهاشميين في حضور المبرد.

وجرت بينه وبين محمد بن الحسن مراسلة فكتب له:

قل لمن لم ترعينا من رآه مثله
ومن كأن من رآ هـ قد رأى من قبله

العلـــم ينهـــى أهلـــه أن يمنعـــــوه أهلـــــه

لعلـــــه يبذلـــــه لأهلـــــه لعلـــــه

وقال تحنانا لغزة:

وإنـــي لمشـــتاق إلـــى أرض غـــزة وإن خـــانني بعـــد التفـــرق كتمـــاني

سـقى الله أرضـا لـو ظفـرت بتربهـا كحلت بـه من شدة الشوق أجفاني [٢٠]

---

(٢٠) ومن شعر،

ومنزلـــة الســـفيه مـــن الفقيـــه كمنزلـــة الفقيـــه مـــن الســـفيه

فهـــذا زاهـــد فـــي علـــم هـــذا وهـــذا منـــه أزهـــد منـــه فيـــه

***

أكـل العقـاب بقـوة جيـف الفـلا وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

***

حســـبي بعلمـــي إن نفـــع مـــا الـــذل إلا فـــي الطمـــع

مـــا طـــار طـــي وارتفـــع إلا كمـــا طـــار وقـــع

***

ولا نأخـــذ بعشـــرة كـــل قـــوم ولكـــن قـــل هلـــم إلـــى الطريـــق

فـــإن تأخـــذ بعشـــرتهم يقلـــوا وتبقـــى فـــي الزمـــان بـــلا صـــديق

***

واحســـــرة للفتـــــى ســـــاعة يعيشـــــها بعـــــد أو دائـــــه

عمـر الفتـى لـو كـان فـي كفـه رمـــــى بـــــه بعـــــد أحبائـــــه

***

لســـت ممـــن إذا جفـــاه أخـــوه أظهـــر الـــذم أو تنـــاول عرضـــا

بـل إذا صـاحبي بـدا لـي جفـاه عـدت بـالود والوصـال ليرضـي

وصـــــن الوجـــــه أن يـــــذل ويخضـــــع إلا للطيـــــف الخبيـــــر

***

كـل العـداوات قـد ترجـي مودتهـا إلا مـودة مـن عـاداك عـن حسـد

***

مـــا حـــك جلـــدك مثـــل ظفـــرك فتـــول أنـــت جميـــع أمـــرك

وإذا قصـــــــدت لحاجـــــــة فاقصـــــد لمعتـــــرف بقـــــدرك

***

ولا خيـــر فـــي ود امـــرئ متلـــون إذا الـريح مالـت مـال حيـث تميـل

ومـا أكثـر الإخـوان حـين تعـدهم ولكـــنهم فـــي النائبـــات قليـــل

أكمل الشافعي دراساته ورجع من هذيل عالما في اللغة والأدب والسير وأيام العرب. أما أيام الإسلام العظمى. فقد كان يعيش في صميم مصدرها الأصلي بمكة.

***

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به بالقدر

وساعدتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ذهب إليه من يقول: يا أبا عبد الله. قلت أبياتا إن كنت أحدثت مثلها لأتوبن من قول الشعر قال هيه: فأنشأ يقول:

ما همتي إلا مقارعة العدا خلق الزمان وهمتي لم تخلق

لو كان بالحيل الغني لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلقي

قال الشافعي: هلا قلت كما أقول. وأنشأ مرتجلا:

إن الذي رزق فلم يصب أجرا ولا حمدا لغير موفق

الجد يدني كل أمر شاسع الجد يفتح كل باب مغلق

فإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأثمر في يديه فصدق

وإذا سمعت بأن مجذوذا أتى ماء ليشربه فغاض فحقق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق

كان أمامه أن يقرض الشعر وينشده، وأن يتحدث في الأدب والغة والسير المغاري، ما شاء. وكانت الرواية والأدب بضاعة مزجاة في المحافل، وهو أقدر الناس على تشقيق الكلام. وكان أمامه ميدان أعلى من كل ذلك عند الله وأشد مخطرة في الناس، فيتخصص في تفسير الكتاب العزيز مثلما عمد غيره من قبل ومن بعد. وكانت تشوقه المخطرة، وتؤيده القدرة. لكنه رأى أن يضيف إلى التفسير بيان حكم الله في شئون الحياة الدنيا من العبادات والمعاملات، وتعليم ذلك للناس. فاختار الفقه ميدانا لاجتهاداته وركز عليه ليكون أقدر على الإصابة. وهو بطبعه وتعليمه وتربيته شديد التركيز على أهدافه.

وكانت تدفعه إلى معترك الفقه رياح عاصفة تهب من بغداد على أصحاب السنن في مكة، ونسائم منعشة تجئ إليهم من المدينة. وكان أمامه عندئذ أن يجلس حيث أذن مسلم وأقر سفيان. ولعل هذا كان أقرب الأبواب له. لكنه أبي أن يدخله.

وظهرت مرة أخرى في لحظة حاسمة من لحظات حياته، عقليته وطبيعته، فأدرك بعقليته العلمية، أنه في بداية الطريق. وأدرك بطبيعة الإنصاف في نفسه أن أول الإنصاف إنصاف الناس من النفس.

وكانت المدينة هي الدار اللموم للنابهين. ولعلماء السنة بخاصة. فيها إمام "دار الهجرة" والشافعي كدأبه يأخذ الشيء من المصادر الأصيلة. فتجهز وأعذ الجهاز للسفر إلى المدينة.